

روح المعاني

في بابه فإنه يوصف بالكرم وجعل ذلك بعض المحققين من وصف الشيء باسم صاحبه أي قولا صادرا عن كرم ولطف ويعود بالآخرة إلى القول الجميل الذي يقتضيه الأدب ويستدعيه النزول عن المروءة مثل أن يقول يا أبتاه ويا أماه ولا يدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء وسوء الأدب وليس القول الكريم مخصوصا بذلك كما يوهمه اقتصار الحسن فيما أخرجه عنه ابن أبي حاتم عليه فإنه من باب التمثيل وكذا ما أخرج عن زهير بن محمد أنه قال فيه : إذا دعواك فقل لبيكما وسعديكما .

وأخرج هو وابن جرير وابن المنذر عن أبي الهذاج أنه قال : قلت لسعيد بن المسيب كل ما ذكره تعالى في القرآن من بر الوالدين فقد عرفته إلا قوله سبحانه : وقل لهما قولا كريما ما هذا القول الكريم فقال ابن المسيب قول العبد المذنب للسيد اللفظ .
واخفض لهما جناح الذل أي تواضع لهما وتذلل وفيه وجهان الأول أن يكون على معنى جناحك الذليل ويكون جناح الذل بل خفض الجناح تمثيلا في التواضع وجاز أن يكون استعارة في المفرد وهو الجناح ويكون خفض الترشيحا تبعا أو مستقلا الثاني أن يكون من قبيل قول لبيد : وغداة ريح قد كشفت وقرة إذا أصبحت بيد الشمال زمامها فيكون في الكلام استعارة مكنية وتخيلية بأن يشبه الذل بطائر منحط من علو تشبيها مضمرًا ويثبت له الجناح تخيلا والخفض ترشيحا فإن الطائر إذا أراد الطيران والعلو نشر جناحيه ورفعهما ليرتفع فإذا ترك ذلك خفضهما وأيضا هو إذا رأى جارحا يخافه لصق بالأرض وألصق جناحيه وهي غاية خوفه وتذلل وقيل المراد بخفضهما ما يفعله إذا ضم فراخه للتربية وأنه أنسب بالمقام وفي الكشف أن في الكلام استعارة بالكناية ناشئة من جعل الجناح الذل ثم المجموع كما هو مثل في غاية التواضع ولما أثبت لذله جناحا أمره بخفضه تكميلا وما عسى يختلج في بعض الخواطر من أنه لما أثبت لذله جناحا فالأمر برفع ذلك الجناح أبلغ في تقوية الذل من خفضه لأن كمال الطائر عند رفعه فهو ظاهر السقوط إذا جعل المجموع تمثيلا لأن الغرض تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس وأما على الترشيح فهو وهم لأن جعل الجناح المخفوض للذل يدل على التواضع وأما جعل الجناح وحده فليس بشيء ولهذا جعل تمثيلا فيما سلف .

وقرأ سعيد بن جبير من الذل بكسر الذال وهو الانقياد وأصله في الدواب والنعث من ذلول وأما الذل بالضم فأصله في الإنسان وهو ضد العز والنعث منه ذليل من الرحمة أي من فرط رحمتك عليهما فمن ابتدائية على سبيل التعليل قال في الكشف : ولا يحتمل البيان حتى يقال لو كان كذا لرجعت الاستعارة إلى التشبيه إذ جناح الذل ليس من الرحمة أبدا بل خفض جناح

الذل جاز أن يقال إنه رحمة وهذا بين واستفادة المبالغة من جعل جنس الرحمة مبدأ للتدلل فإنه لا ينشأ إلا من رحمة تامة وقيل من كون التعريف للاستغراق وليس بذاك وإنما احتاجا إلى ذلك لافتقارهما إلى من كان أفقر الخلق إليهما واحتياج المرء إلى من كان محتاجا إليه غاية الصراعة والمسكنة فيحتاج إلى أشد رحمة و[] تعالى در الخفاجي حيث يقول : يا من أتى يسأل عن فاقتي ما حال من يسأل من سائله ما ذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجا إلى عامله